

على هامش النثر

المعاني والظلال

الأستاذ سيد قطب

هناك فارق حاسم بين لغة العلم ولغة الفن ، نستطيع إجمالاً ، في أن العلم يعنيه ما في السطور ، وأن الفن يعنيه ما بين السطور ، ويعبر آخر إن العلم يعنيه معنى التعبير ، والفن يعنيه الظل الذي يلقيه التعبير . ولا يفهم أحد من هذا ما كان مفهوماً عندنا قبل ثلاثين أو أربعين سنة من أن الفن هو تلك الألعاب اللفظية ، والبرقشات التعبيرية ، فبين هذا وبين ما نريده فرق بعيد

إن ما نقوله لا يتناقى مع صدق الإحساس ، وصدق التعبير عن الحياة ، وهما مفرق الطريق بين ما كان يعنيه الأدب قبل هذا الجليل ، وما يعنيه الآن . وبعد تحقق هذه المرحلة نبحث عما في السطور وعما بين السطور أو عن المعاني والظلال في التعبير عن الأحاسيس الساذقة التي هي الخطوة الأولى في كل أدب صحيح وحين نأمن اللبس من هذه الناحية نتحدث - في حرية - عن أشكال التعبير وعن طرق الأداء التي نفضلها على أشكال وطرق أخرى

لقد أخذنا على الأدب العربي في مجلته أن «المعاني» تعنيه ، أكثر مما تعنيه «الحالات النفسية» وأن التعبير فيه يعنى بهذه المعاني السكينة - الحسية أو الذهنية - قبل أن يعنى «بالإنسان» من وراء هذه المعاني والإحساسات

وعذر العرب في هذا واضح . لقد كانوا أمة حس ، لا تختزن في نفوسها رصيذاً من الأحاسيس والوجدانات إنما تنفقه للحظة في الحركة والعمل ، فساداً على أن طبيعة بلادهم لا تهيب لهم هذا الرصيد

فما غدرنا نحن - في مصر خاصة - وبيئتها أبعد ما تكون عن بيئة الصحراء في ألا ننتفع بالبيئة المواتية والطبيعة العريقة ، في إبداع فن يأخذ من اللغة العربية ألفاظها وعباراتها ، ويفير

في طريقة الإحساس وطريقة التعبير ، لنكون بهذا أمعاء لأنفسنا ، أمعاء لطبيعة بلادنا ، أمعاء للفن الرفيع في جوهره ومظهره

لقد تحدثت في المقالات الثلاث الماضية بمناسبة كتاب «عرائس وشياطين» عما نعينه بالجانب الإنساني وعما نعينه بالحالات النفسية ، فاليوم أتحدث عن طريقة الأداء التي تؤثرها ، ونبين المزايا الفنية لهذه الطريقة

التعبير الذي يلتقي المعنى مجرداً يخاطب الذهن وحده ، والتعبير الذي يرسم المعنى صورة أو ظلاً يخاطب الحس والوجدان ، وبطبيع في النفس صورة من صنع الخيال . وطبيعي أن الطريقة الثانية أقرب إلى طبيعة الفنون ، وأن الطريقة الأولى أقرب إلى طبيعة العلوم . والنموذج يوضح هذه القضية أكثر مما يوضحها أي بيان ، فالتفد الفني موكل بالمثل أكثر من الإجمال :

لقد اختار القرآن الكريم طريقة التصوير والتخييل ، وجعلها قاعدة فيه للتعبير . ومن العجيب أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول ، ثم لا يستفيد الأدب العربي من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله ، وتيسيره للذكر في أيديهم . إلا فلتات في ديوان كل شاعر ، هي امتداد للتصوير في الأدب الجاهلي وعلى طريقته ، لا على طريقة القرآن الرفيعة

ولعل مراد ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأفق الرفيع في ذلك الأوان . فلملنا أن نكون اليوم أحق بهذا التطلع من جميع من مضوا من شعراء العربية خلال أربعة عشر قرناً

إن تفرد القرآن بطريقته التصويرية في هذا المستوى بين الشعر الجاهلي قبله والشعر العربي بعده يمكن أن يتخذ دليلاً فنياً على تفرد مصدر هذا القرآن ، لولا أننا هنا في مقام البحث الفني ، لا البحث الديني

والآن نمود إلى نماذج القرآن التصويرية في التعبير ، لبيان فضل هذه الطريقة من الناحية الفنية :

في خلقه هو الإعجاز في خلق الجبل والفيل . لأنها معجزة خلق الحياة ، يستوى فيها الجسيم والضئيل ، وليست المعجزة في صميمها هي خلق الهائل من الأحياء ، وإنما هي خلق الذرة الحية المفردة ولكن البراعة هنا هي في عرض هذه الحقيقة بصورة ترمز المعجز عن بلوغ مسألة هيئة في ظاهرها ، والجبال هنا هي في تلك الظلال التي تلقى خطوات الصورة من خلال التعبير

٣ - والتعبير الذهني المجرد عن هول يوم القيامة يمكن أن يكون نصوصاً كثيرة ، كأن يقال « إنه لهول مفزع مرروع مذهل ... » فلا ترسم في النفس صورته كما يرسمها التعبير القرآني المصور :

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ؛ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

وليس النسق القرآني وحده في النظم هو الذي يرتفع بهذا التعبير إلى مستواه الذي تستشعره النفس عند تلاوته . إنما هي هذه الطريقة التصويرية كذلك ، حيث يزدحم الخيال بصور كل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، شاخصة تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تم ، وصور الناس سكارى وما هم بسكارى ، في عيونهم ذهول السكر ، وفي خطواتهم ترنحه

إن هذا الحشد من الصور الذاهلة هو العمل الفني الضخم في هذا التعبير

وليست هذه الصور فلتات في القرآن إنما تلك طريقة متممة وخصيصة شاملة ، وفي هذا يتفرد القرآن وحده . فالتصور قد يقع فلتات في الشعر العربي ، تسكر في الشعر الجاهلي وتقل في الشعر الإسلامي . ولا بعد قاعدة في هذا الأدب كله . ثم تبقى بعد ذلك درجات العمق في هذا التصوير . ولها مجال غير هذا المجال

طريقة التصوير والتظليل التي نوجه إليها الأنظار ، هي الطريقة

١ - معنى النفور الشديد من الدعوة إلى الهدى ، يمكن أن يؤدي في صورته التجريدية الذهنية على نحو كهذا : إنهم لينفرون أشد النفرة من الدعوة إلى الإيمان . فيتملى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون

ولكن التعبير القرآني يؤديه في هذه الصورة الحية المتحركة : « فإلهم عن التذكير مَعْرِضِينَ ؛ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملسكة الخيال ، ويشور في النفس شعور السخريه وشعور الجبال ؛ السخريه من هؤلاء القوم النافرين كالجر ، الوحشية المدعورة من الأسد ، والجبال الذي في الصورة المتحركة الطليقة

فللتعبير هنا ظلال حوله تزيد في مساحته النفسية ، إذا صح هذا التعبير !

٢ - ومعنى عجز الآلهة التي كانت العرب يعبدونها من دون الله ، يمكن أن يؤدي في عدة تعبيرات ذهنية مجردة كأن يقال : إن ما تعبدون من دون الله لا تعجز من خلق أحقر الأشياء . فيصل المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً

ولكن التعبير القرآني يؤديه في هذه الصورة :

(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ؛ وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

فيحيا هذا المعنى الساكن ، ويتحرك في تلك الصور المتحركة المتعاقبة

أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يثير في النفس السخريه اللاذعة والاحتقار المهين :

« لن يخلقوا ذباباً » وهذه درجة « ولو اجتمعوا له » وهذه أخرى « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » وهذه أنكى ولكن أهذه مبالغة ؟ وهل البلاغة فيها هي الفلو ؟

كلما فهذه حقيقة واقعة بسيطة . فهؤلاء الآلهة « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صمير حقير ، ولكن الإعجاز

التي وردت فيها فرائد الشعر العربي التي تهيأت للشعراء على ممر الأجيال

فأجود ما وقع لامرئ القيس هو من الشعر التصويري مثل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع المغموم ليبتلى
فقلت : له لما تطل بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل ككل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فتشخيص الليل هنا ومنحه الحياة ، ورسم هذه الصورة
المتحركة له ، هي موضع الجلال في هذه الأبيات لا مجرد معنى أن
الليل قد طال وأنه سئم هذا الطول

وكذلك بيته الآخر في وصف حصانه :

مَكْرَرٌ مَفَرٌّ مَقْبَلٌ مَدْبِرٌ مَمَّا

كلمود صخر حطه السيل من عل
وما فيه من تشخيص الصورة والحركة ، لا مجرد معنى أنه
يكبر ويقر ويقبل ويدبر في لحظة واحدة . وأجود ما وقع لزهير
أبياته التصويرية كذلك مثل :

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَعِي الصَّيْدَ مَرَّةً

مَتَى نَرَهُ فَإِنَّا لَا نُخْزِيهِ
فَبَيْنَا نُبَتِّي الصَّيْدَ جَاءُ غَلَامُنَا

يَدِبُّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَبُضَائِلُهُ
ففي صورة هذا الغلام الشاخصة هنا وفي حركته الرسومية
كأنما على الشاشة جمال فني لا شك فيه

وأجود ما وقع لسويد بن كاهل اللشكري أبياته التي يصور
فيها حاسده صوراً شاخصة فيها الملامح الحسية والانفعالات
النفسية . وجميعها صور وظلال لا معان مجردة :

رُبَّ مَنْ أَنْضَجَتْ غِيظًا قَلْبَهُ

قَدْ تَمَعَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعْ
وِرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِيراً تَخْرَجُهُ مَا يُفْتَرَعُ
مُزْبِذٌ يَخْمَطُ مَا لَمْ يَرَقْ فَإِذَا أَسْمَعْتَهُ صَوْتِي انْقَمَعَ

لم يضرنني غير أن يحسدني فهو يرثي فومئذ يزقوا الضوع^(١)
فتتم الصور المزرية التي رسمها له بعد أن تترك في النفس ظلالاً
واضحة ، وفي الحس صوراً شاخصة ، فيها كل جمالها الفني الذي
يتيحجه التصوير والتخييل^(٢)

ويكثر التصوير في الشعر الجاهلي ، ويقل في الشعر الإسلامي ،
على عكس ما كان منتظراً بعد وجود القرآن بين أيديهم ،
وتعميره كله قائم على الطريقة التصويرية ، ولكن قاتل الله
« الماعاني » ، لقد أصبحت كل هم الشعراء وغلبت طريقة
العلم على طريقة الفن ، فتقهقر الأدب العربي من هذه الناحية ،
بجانب خطواته التي تقدمها في نواح أخرى

فإذا نحن تجاوزنا ابن الرومي - وهو فريد في تاريخ الأدب ،
العربي كله - لم نعتز إلا على فلتات في ديوان كل شاعر ، قام
فيها التعبير بمهمة التصوير . فلتات قد تكون مائة وقد تكون
ألفاً ، ولكنها تبدو ضئيلة جداً بين ملايين الأبيات من الشعر
العربي على ممر الأجيال

وإن أجود ما وقع للشعراء هنا كذلك ، لهي الأبيات التي عبر عنها
عنها بطريقة التصوير والتخييل . مثل بيت مسلم بن الوليد الذي
نقلناه في كلمة ماضية :

تمشي الرياح به حسرى مولدة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد
وما فيه من تشخيص وخلع الحياة على الرياح
ومثل بيتي كثير :

وإني وتهيامي بمزة بعد ما تخليت مما بيننا وتخلت
لكا لم تجبي ظل الغمامة ، كلما تهيماً منها المعيل استقلت
وما فيها من حركة متخيلة : حركة حسية تقابلها حركة نفسية في
تساوق وانفاق . ومثل بيتي المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثغرك بامم

(١) الضوع : ذكر الضفدع

(٢) في الجزء الأول من حديث الأرباء للدكتور طه حسين بك
بحث كامل عن هذا التصوير .